

حول مقال "ذوالقرنين بين الخبر القرائي والواقع التاريخي"*

لقد أجاد وأفاد صاحب المقال الأستاذ عبد الله إبراهيم العسكر في استعراضه الكامل الشامل لأقوال المفسرين والمؤرخين عن شخصية ذو القرنين: من هو، وأين عاش، وفي أي زمن؟ والتي عددها إثني عشر قولاً.

وكلها — كما قال الأستاذ العسكر — لو تأملناها لوجدناها إلى الاسرائيليات أقرب وألصق... ومنها ما صدر من أصحابها كآراء شخصية وترجيح واستخراج المعاني بتغير الحروف عن أماكنها الأصلية، وبمعنى آخر تدوير المعنى على أساس أصل الكلمة واشتقاقها الصرفي، وهذا كما ترى لا يمت للطريقة العلمية بصله، بل هو إلى التخربات أقرب، وخاصة أولئك الذين أعطوا لذي القرنين أسماء عربية إسلامية... الخ.

ثم أورد آراء فريق آخر من مؤرخين ومفسرين كابن هشام والرازي وابن الأثير والمسعودي والمراغبي وجرجي زيدان وغيرهم ممن يرى أن ذا القرنين هو الاسكندر المقدوني الكبير. وما ذهب إليه العالم الهندي شبلي النعمان من أنه (دارا) الكبير ملك فارس بالقرن الخامس قبل الميلاد، وما رجحه العالم أبو الكلام آزاد من أنه قورش الأكبر الأخميني ملك فارس بالقرن السادس قبل الميلاد... الخ.

(٥) نشرت بمجلة الدارة : العدد الأول — السنة الرابعة ربيع ثاني سنة ١٣٩٨هـ تعليقا على مقال الأستاذ عبد الله إبراهيم العسكر المنشور بعددي المجلة الثالث والرابع للسنة الثالثة.

وبعد أن سرد عدة أقوال واستنتاجات ؛ رجح الأستاذ العسكر أن ذا القرنين هو الملك الصعب بن الحارث من ملوك حير الذي روى أنه توغّل في الفتح في أفريقيا حتى بلغ أقصاها وعبر منها إلى جزيرة الأندلس وبنى فيها المنارات في بحر الظلمات... إلخ مستندا إلى ماذهب إليه الأستاذ معروف الدواليبي في كتابه : «دراسات تاريخية عن أصل العرب (٢٤)» والذي استند هو الآخر إلى أبي الريحان البيروني ص (٤١) دون ذكر كتاب البيروني في هذا الصدد ولعله كتاب الآثار الباقية عبر القرون الخالية» ، وذلك الترجيح كان استنادا من جهة أبي الريحان لشيء واحد لا غير وهو أن (ذو) لاتأسي إلا في أسماء ملوك حير مثل : «ذو نواس» و«ذو المنار» و «ذو الشنار» و «ذو الأدغار» وغيرها.

ورأي أن كلمة(ذو) في حد ذاتها لا تصح دليلاً علي أن الملك الصعب ابن الحارث من ملوك حير هو ذو القرنين المذكور في سورة الكهف بالقرآن الكريم، خصوصاً وأنه حتى الآن لم يعثر في النقوش السبئية والحميرية على أي ملك سبئي يسبق اسمه حرفاً (ذو) ولا من اسمه الصعب بن الحارث ولا غير ذلك مما جاء في المؤرخات العربية ك«ذو نواس» و «ذو الشنار» و «ذو الأدغار» بل كل ماورد في النقوش من الأسماء هو : شميرهرعش، معدكرب، نشأكرب وأمثالها.

وفي اعتقادي أنه عندما نورد الآيات الكريمة المتعلقة بذوي القرنين ثم نقرؤها في تمعن وتمهل ثم نقارنها بأحداث التاريخ المحلي والعالمي نستطيع أن نخرج بنتيجة مقبولة ومعقولة، وها نحن نورد الآية الكريمة الخاصة بالموضوع ثم ندرسها.

قال الله تعالى «ويسئلونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً، إننا مكنا له في الأرض وآتيناه من كل شيء سبباً، فأتبع سبباً، حتى إذا بلغ مغرب الشمس وجدها تغرب في عين حمئة ووجد عندها قوماً قلنا يا ذا القرنين إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسناً، قال أمّا من ظلم فسوف

نعدّبه ثم يُرَدُّ إلى ربه فيعدّبه عذاباً نكراً، وأمّا من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنی وسنقول له من أمرنا يسراً، ثم أتبع سبباً، حتى إذا بلغ مطلع الشمس وجدها تطلّع على قوم لم نجعل لهم من دونها سثراً، كذلك وقد أحطنا بما لديه خُبراً، ثم أتبع سبباً، حتى إذا بلغ بين السدّين وجد من دونها قوماً لا يكادون يفقهون قولاً، قالوا يا إذا القرنين إنّ يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خراجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً، قال ما مكنتي فيه ربي خير فأعينوني بقوة أجعل بينكم وبينهم ردماً، آتوني زبر الحديد حتى إذا ساوى بين الصدفين قال أنفخوا حتى إذا جعله ناراً قال آتوني أفرغ عليه قطراً، فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً، قال هذا رحمة من ربي فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء وكان وعد ربّي حقاً» (٥).

يستدل من هذا الآية الكريمة أن هذا السلطان أو الملك المسمى بذئ القرنين أو ما في معناها اللغوي في ذلك العصر قد مكنته الله في الأرض تمكيناً عظيماً، ومنحه من القوة ما تمكن بها من الوصول في فتوحاته إلى أقصى الأرض ووسطها وأدناها، وأن مناهجه كان محاربة الفساد ونشر الخير والعدل بين العباد، وكان للظالم عنده عقابه الدنيوي ثم الأخروي عندما يعود إلى ربه فيعدّبه عذاباً نكراً أي لا يشبه عذاب البشر (هدانا الله إلى صوابه ونجاننا من عذابه وعقابه) أما الصالح فله عنده الجزاء الطيب والتكريم البالغ.

حتى إذا بلغ بين السدين، وهو مكان يعلمه الله تعالى، وكان من ورائه يأجوج ومأجوج، وهم أهل شر وفساد وطغيان، طلب منه أهل تلك الناحية أن يبني دونهم سداً منيعاً، ولم يتوان ذو القرنين عن ذلك لأن مبدأه نشر العدل وقع الفساد، ولم يقبل منهم ما بذلوه من عون مادي بل أجابهم قائلاً: ما مكنتي فيه ربي خير، ولكن أعينوني بسواعدكم، ثم قام بردمه بقطع الصخر والحديد المذاب، وبعد أن أتم عمله الجبار قال (هذا رحمة من ربّي فإذا جاء وعد ربّي جعله دكاء وكان وعد ربي حقاً).

(٥) سورة الكهف الآيات : ٨٣ - ٩٨

والواضح من هذه الآيات أن ذا القرنين كان موثقاً مؤمناً بالله واليوم الآخر، وهي صفة أخرى إلى جانب صفة القوة والتمكين في الأرض، وبالرجوع إلى مصادر التاريخ المدون، وسواء التاريخ الفارسي أو اليوناني أو العربي، نجد أن ذلك التاريخ لم يأت لنا بأي ملك أو سلطان كانت له هاتان الصفتان، وبعبارة أوضح أنه لا قورش الأكبر ملك فارس ولا الاسكندر المقدوني ملك مقدونيا ولا الصعب بن الحارث الحميري ملك حمير يمكن أن تنطبق عليه صفتا ذي القرنين المشار إليهما وذلك لأمر سنوضحها فيما يلي :

أولاً : أن قورش الأكبر ملك فارس الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد كان على دين زرادشت الذي ظهر في إيران في منتصف القرن السابع قبل الميلاد، ولم يكن موثقاً بل كان من عبدة النار، كما أنه لم يملك في الأرض تمكيناً كبيراً فقد عجز عن غزو مصر ولم يسيطر عليها إلا ابنه قبيز بعد موته، كما عجز عن احتلال مناطق أخرى كإفريقيا والجزيرة العربية .

ثانياً : أن الاسكندر المقدوني الذي عاش في القرن الرابع قبل الميلاد وبعبارة أدق من سنة ٣٥٦ إلى سنة ٣٢٣ قبل الميلاد والذي سيطر على فارس ومصر، قد فشل في اقتحام الصين وما والاها شرقاً وغرباً كما فشل في احتلال الجزيرة العربية وإفريقيا، وقد توفي وعمره ثلاثة وثلاثون عاماً دون أن يكون له نية بفتح العالم بأسره، ومع ذلك فلم يكن مؤمناً موثقاً بل كان من عبدة الكواكب التي اشتهر الإغريق القدامى بعبادتها كأبوللو وهوميروس وزيوس وكلها ترمز في الأصل إلى كواكب معينة كالشمس والقمر والزهرة.

ثالثاً : أن الصعب بن الحارث ملك حمير لم يكن له وجود في أية قائمة من قوائم البحث العلمي المرتكز على النقوش والذي كاد أن يحصر ملوك سبأ وحمير حصراً، كما لم تأت النقوش باسمه ولا بمثل اسمه كما أسلفنا، على أنه إن صح وجود ملك حميري بهذا الاسم فإن دولة حمير وأقصد بها الدولة

السبئية الثالثة والرابعة والتي بدأت سنة ٥٠ قبل الميلاد وانتهت سنة ٥٢٤ للميلاد كانت دولة ضعيفة متوقعة في جنوب الجزيرة العربية مهددة باحتلال الأحباش الذين كانوا بمثابة الوكيل الشرعي للرومان والذين ما فتئوا يغزون البلاد من أيام الشرح يحضب (٣٥ - ١٥٠ ق.م) ثم احتلوها للمرة الأخيرة سنة ٥٢٤ للميلاد ودمروا مدنها وحضارتها. أما في شمال الجزيرة فلم يكن لهذه الدولة نفوذ مستمر أو مستقر، وأحيانا كانت ترتبط بأحلاف مع الملوك الأزدية في الفاو ثم مع حلفائهم في المنطقة من مذحج وقحطان ومعد، وأخيراً مع ملوك كندة الذين تمركزوا باديء ذي بدء في الفاو كما ذكر ذلك الدكتور عبد الرحمن الطيب الأنصاري في مقاله بنفس العدد المذكور ثم بدومة الجندل أخيراً، عملاً بما جاء من أخبارهم مع مناذرة الحيرة قبل الإسلام ثم بعد الإسلام كما في قصة أكيدر بن عبد الملك الكندي صاحب دومة الجندل المشهورة.

والملك الحميري الوحيد الذي جاءت النقوش بذكر قوته وغزواته العسكرية هو شمير يرهر ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات (٢٦٢ - ٣٠٠ م) فقد أفصح نقشنا المعروف برقم (٤٢) بأنه قام بعدة حملات عسكرية داخل اليمن وخارجه وصل في إحداها إلى أطراف فارس.

ثم الملك يوسف أسار يثار ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمنات وابنه ملك ينوف صاحباً نقشي بئر حاء بمنطقة الفاو بالمملكة العربية السعودية والمؤرخين بسنة ٥١٨ م.

وقد غزا كلٌّ منها نجران وهدم قليساها (أي كنيسها) ويغلب في ظني (والله أعلم) أن يوسف أسار هذا هو صاحب قصة الأخدود التي جاء ذكرها في القرآن الكريم والمعروف عند المؤرخين العرب بذي نواس.

وفي اعتقادي أنه لو فرض وجود ملك حميري في هذه الفترات من بعد ميلاد المسيح عليه السلام وكان له من القوة ما يمكنه من التغلغل في

الشمال فإن قوى كبيرة وعديدة كانت ستقف أمامه سداً منيعاً، فهناك قوى الامبرطورية البارثية ومن بعدها الساسانية على الفرات، وهنالك السلوقيون في سوريا والمكابيون في فلسطين والأنباط في البتراء وزنوبيا في تدمر، وخلف هؤلاء جميعاً ما عدا الساسانيين الرومان الذين ضربوا حول الجزيرة العربية حصاراً برياً وبحرياً رهيباً استمر حتى سنة ٦٣٤ للميلاد الموافقة لسنة ١٣ للهجرة عندما دحرتهم قوات الإسلام في معركة اجنادين ثم في معركة اليرموك الحاسمة سنة ٦٣٦ للميلاد (سنة ١٤ للهجرة) بقيادة خالد بن الوليد رضي الله عنه. وتلا ذلك معركة القادسية سنة ٦٣٧ م (١٦ هـ) بالنسبة للفرس انتصر فيها جيش الإسلام بقيادة سعد بن أبي وقاص واستولى على المدائن وغيرها.

إن أعظم ملك مؤمن موحد طبقت سلطته أرجاء الارض ممن جاء بذكره القرآن الكريم والتاريخ المدون هو النبي سليمان بن داود عليهم السلام (القرن العاشر قبل الميلاد) وقد جاء ذكره في القرآن الكريم أكثر من خمس عشرة مرة، ولست أعني أنه المقصود بذوي القرنين، إلا أنه ليس من المستبعد أن يكون ذو القرنين هو أحد خلفائه الأسباط ممن اتبعوا دينه ونسجوا على منواله، وإلا فهو واحد من ملوك الأمم القديمة من سومريين وعيلاميين.

وأخيراً أقول أنه لولا أن المشركين قد طلبوا من الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم وبتوجيه من يهود أن يخبرهم عن رجل بلغ مطلع الشمس ومغربها فأنزل الله تعالى هذه الآية الكريمة الباهرة، أقول إنه لولا ذلك لما عرفنا شيئاً عن ذي القرنين وقوته العظيمة وقصته العجيبة، ولكان في عداد عوالم الله الكثيرة التي حجب منا أمرها وكتّم عنا سرها.

هذا وأود أن أنهي حديثي بكلمة خالدة قالها السيد قطب رحمه الله في ذات الموضوع وهي : « ومن البديهي أنه لا يجوز محاكمة القرآن الكريم إلى التاريخ لسببين واضحين : أولهما أن التاريخ مولود حديث العهد فاتته أحداث لا تخصى من تاريخ البشرية لم يعلم عنها شيئاً، والقرآن الكريم

يروى بعض هذه الأحداث التي ليس لدى التاريخ علم عنها. ثانياً : إن التاريخ وإن وعى بعض هذه الأحداث هو عمل من أعمال البشر القاصرة يصيبه ما يصيب أعمال جميع البشر من القصور والخطأ والتحريف، ونحن نشهد في زماننا هذا - الذي تيسرت فيه أسباب الاتصال ووسائل الفحص - أن الخبر الواحد والحادث الواحد يروى على أوجه شتى ، وينظر إليه من زوايا مختلفة، ويفسر تفسيرات متناقضة ومن مثل هذا الركام يصنع التاريخ».

«فجرد الكلام عن استفتاء التاريخ فيما جاء به القرآن الكريم من القصص، كلام تنكره القواعد العلمية المقررة التي ارتضاها البشر، قبل أن تنكره العقيدة التي تقرر أن القرآن هو القول والفصل...».

«لقد سأل سائلون عن ذي القرنين ، سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله وسلم فأوحى الله إليه بما هو وارد هنا من سيرته، وليس أمامنا مصدر آخر غير القرآن في هذه السيرة، فنحن لانملك التوسع فيها بغير علم ، وقد وردت في التفاسير أقوال كثيرة، ولكنها لاتعتمد على يقين، وينبغي أن تؤخذ بحذر لما فيها من اسرائيليات وأساطير» انتهى كلام الامام سيد قطب رحمه الله مقتبساً من كتابه (في ظلال القرآن) الجزء السادس عشر صفحة ٢٢٩٠ - ٢٢٩١ مطبعة دار الشروق ببيروت ١٣٩٦هـ.